"كُنتُ تائهة... فهداني"

دفافني خولة

الفصل الاول
الليلة التى انكسر فيها القلب

لم تكن تعلم أن ضحكتها الأخيرة في حضن والدتها ستكون الوداع.

ولم تكن تدري أن صرخة أخيها الصغير وهو يطلب منها قطعة حلوى ستظل تلاحقها ككابوس.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً.

العائلة تجمّعت في السيارة، وجوههم تضيء في العتمة، حديثهم عن عطلة نهاية الأسبوع، وضحكاتهم تتعالى داخل المركبة.

هي، من مقعدها الخلفي، كانت تُحدّق من النافذة... كانت تبتسم دون أن تشعر، وكأن روحها كانت تستودع اللحظة.

ثم...

أضواء سيارة ضخمة ظهرت فجأة من الجانب الأيسر.

صرخة أمها تقطع الليل.

صوت الاصطدام يهزّ روحها.

كل شيء انقلب.

الزجاج يتناثر.

الحديد يلتوي.

والصمت... يسقط مثل سكين في صدرها.

استفاقت في المستشفى، رأسها ينزف، ذراعها معلقة، لا صوت حولها إلا صفير أجهزة التنفس.

سألت عنهم.

لم يجيبها أحد.

حتى جاء الطبيب... لا ملامح، لا تمهيد... فقط الحقيقة القاسية:

"عائلتك... لم تنجُ أحد منهم".

كلمات كأنها جلاد.

تجمدت.

لم تصرخ، لم تبكِ.

فقط نظرت إلى السقف... وأغمضت عينيها.

في تلك الليلة، لم ينكسر قلبها فقط... بل **انطفأت روحها**.

مرت الأيام كأنها أشباح.

الناس زاروا، بكوا، ثم غادروا.

والبيت أصبح بارداً، رطباً، مليئاً بالصدى.

انتقلت إلى بيت خالتها التي بالكاد تعرفها.

المرأة كانت مشغولة بحياتها، تنظر إليها بنظرة الشفقة الباردة:

"مسكينة... الله يعينها، لكن الحياة تستمر".

لكن الحياة لم تستمر عندها.

كل يوم كانت تشعر بأنها غير مرئية، عبء يُلقى على الأريكة.

كانت تصحو لتتذكر أنهم ماتوا.

تنام لتراهم في الأحلام.

وفي أحد الأيام، وهي تنظف أغراض والدتها، وجدت رسالتها الصغيرة:

"لا تنسي صلاتك يا روح ماما، الله دائما معك".

أغلقت الورقة.

مزقتها.

ورمتها بعيدًا.

قالت في نفسها:

"أين هو الآن؟ أين كان حين أخذهم مني؟"

الفصل الثاني

حين خنت نفسي

بدأ الانهيار بصمت...

ثم صارت الخطوات أكثر جرأة.

في البداية، خرجت بدون إذن، فقط لتتنفس خارج هذا السجن.

ثم تعرفت على فتاة في الحي، "أريج"، ذات عيون قوية وضحكة ساخرة.

سحبتها من الظل إلى عالم مختلف.

علّمتها كيف تضع الكحل، كيف ترتدي الضيق، كيف تكذب، كيف تشرب.

قالت لها مرة:

"نسيان الألم سهل... بس بدّك تعيشي شوي، مش تبقي ميّتة وإنتِ حيّة".

أُعجبت بها. كانت حرة، قوية، متمردة.

بدأت تخرج معها إلى أماكن لم تكن تعرف أنها موجودة: مقاهي مظلمة، بيوت صديقات، حفلات صغيرة...

حتى جاء اليوم الذي دخلت فيه أول ملهى ليلي.

كان الضوء خافتًا، والموسيقى كالرعد.

جسدها كان يتمايل بلا وعي، الكحول تسيل في حلقها، والدخان يختلط في رئتيها.

ضحكت، رقصت، نسيت كل شيء.

لكنها حين عادت تلك الليلة، نظرت إلى نفسها في المرآة:

الكحل سائل، عيناها حمراوان، وجهها غريب.

لم تعرف من هي.

همست:

"أنا... لست أنا".

لكنها لم تتوقف.

الإدمان لم يكن على الخمر فقط، بل على الهروب.

وفي إحدى الليالي، بعد أن شربت الكثير، أرادت أن تقود بنفسها، رغم اعتراض أريج.

ضحكت وهي تمسك المفاتيح:

"أنا بخير، تعوّدت. اتركيني احلق قليلا".

قادت بسرعة جنونية.

الليل كان حالكًا، والشارع شبه فارغ.

رأسها يدور، الموسيقى تتكلم من مكبّرات الصوت، قلبها يخفق كطبول الجنون.

ثم...

ضوء سيارة قادمة.

منعطف ضيق.

خطأ بسيط.

انقلاب.

اصطدام.

زجاج يتناثر.

صوت فرامل.

ثم صمت.

آخر ما رأته... كان وجهها في المرآة، مشوّهاً، دامعًا، خائفًا.

ثم... سقط كل شيء في العتمة.

دخلت في غيبوبة.

لكن في داخله، لم يكن نومًا.

كان شيئًا آخر...

الفصل الثالث

بين الحياة و الموت

كان جسدها مسجّى فوق السرير الأبيض، أنفاسها تتردد عبر أجهزة معقّدة، أنابيب، أرقام، أصوات تنبض بالحياة... لكنها كانت بلا وعي.

أربعة أيام مرت، ووجهها الشاحب كما هو، كأنها نائمة بعمق، كأنها غارقة في بحر لا قرار له.

في اليوم الأول، دخل الطبيب الشاب "إياد."

شاب في الثلاثينات، معروف برزانته وأخلاقه، ملامحه هادئة، لحية خفيفة، نظرة حانية لا تحمل كبرياء الطب بل تواضع الإيمان.

أخذ الملف الطبي، قرأ حالتها ، ثم تمعّن في وجهها.

فتاة صغيرة، بالكاد مراهقة، وآثار الحادث كانت واضحة على جبينها وخدّها.

قال في نفسه:

"يا رب... أي ذنبٍ حملته هذه الطفلة؟ كيف وصلت إلى هنا؟"

لكنه لم يكتفِ بالصمت.

كان كلّما دخل الغرفة، يهمس دعاء خافتًا:

"اللهم إنك أرحم بها منّا... فاشفها وأعدها إليك، وأصلح حالها".

ترك مصحفًا صغيرًا بجانب سريرها، فتحه على سورة "النور"، ثم خرج.

في عالمٍ آخر...

كانت "هي" لا تدري أين هي بالضبط.

رأت نفسها في مكان واسع، كأنّه صحراء رمادية، لا أرض ولا سماء، فقط ضباب.

سمعت صوتًا، لا يُشبه صوت البشر:

"أأمِنْتِ بالحياة... ونسيتِ صاحب الحياة؟

أأضحكتك الملاهي... ونسيتِ مَن خلقك؟"

أرادت أن تصرخ، أن تجيب، لكنها لم تستطع.

كانت تائهة، خائفة، بردانة، تركض... لا تعرف إلى أين.

ثم رأت وجوهًا...

وجه أمها.

أبيها.

أنس، أخوها الصغير، يركض نحوها:

"أختي... تعالي، لا تتأخري علينا"!

مدّت يدها نحوه، لكنها سقطت فجأة في هوّة سوداء.

استيقظت مجددًا في نفس المكان، وهذه المرة، سمعت تلاوة...

"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"...

صوت رجل يقرأ، صوته نقي، حنون... يشبه الصوت الذي سمعته آخر مرة في مسجد الحيّ.

شعرت بالدفء، لأول مرة منذ الحادث.

همست بصوت داخلها:

"من هذا؟ من يقرأ لي؟"

في اليوم الثاني، لاحظ الطبيب إياد أن نبضها بدأ يستقر، وأن ضغطها عاد طبيعيًا.

ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال للممرضة:

"ادعِ لها... هذه الفتاة تحتاج معجزة، لكنها بين يديّ الله، وليس بين يديّنا".

في اليوم الثالث...

رأت نفسها أمام مرآة، وجهها أسود، مليء بالدخان، والكحل يسيل كدموع فاسدة.

ورأت فتاة محجّبة تُشبهها تمامًا، تقف خلفها وتقول:

"أما آن لك أن تعودي؟ أما آن لقلبك أن يفيق؟"

بكت، وسجدت، لأول مرة في الحلم، وبكت حتى بلّلت التراب.

في اليوم الرابع، لم ينم الطبيب.

جلس بجوار سريرها، ينظر إليها طويلاً، ثم كتب في دفتره الصغير:

"ليست هذه مجرد مريضة...

بل آية من آيات الرحمة الإلهية.

إن نجت... فلن أدعها تعود إلى طريق الظلمة دون أن أكون دليلها نحو النور".

وما إن انتهى من كتابته، حتى سمع صوت الجهاز يُنذر بشيء جديد...

نبضها تسارع.

عيناها تحرّكتا.

ثم...

فتحت عينيها.

نظرت إلى السقف... ثم همست:

"اين أنا؟"

صوتها كان ضعيفًا... لكنه أول دليل أنها عادت.

الفصل الرابع

حين استيقظ القلب

الضوء كان خافتًا... سقف أبيض، رائحة معقّمات، صفير جهاز القلب...

ثم...

صوت ضعيف ينبض في داخلها:

"أنا... عايشة؟"

عيناها فُتحتا ببطء، رمشت عدّة مرات، ثم تحرّكت بخفّة.

جسدها كان ثقيلًا كالرصاص، رأسها يدور، حلقها جاف، لكنّها تسمع... ترى... تشعر.

دخلت الممرضة فجأة وهي تصرخ بفرح:

"فتحت عينيها! الطبيب إياد! تعال بسرعة"!

خافت... من الاسم، من الأصوات، من الواقع.

ثم دخل رجل، يلبس وزرته البيضاء، ملامحه هادئة، في عينيه نور، وفي يده مصحف صغير.

اقترب ببطء، لم يُظهر فزعًا ولا تهليلًا، فقط قال بصوت دافئ:

"الحمد لله على سلامتك... الحمد لله الذي ردّك إلينا".

نظرت إليه، حاولت الحديث، لكن دمعة سالت من طرف عينها.

قالت بصوت متقطع:

"لماذا... أنا؟ لماذا عشت؟"

لم يُجبها بسرعة، جلس بجوار سريرها، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

"ربما... لأن لك رسالة لم تكملها. وربما... لأن الله اشتاق أن تعودي إليه".

شعرت بشيء غريب في صدرها، كأن كلمات بسيطة اخترقت صخرًا ظل يغطي قلبها طويلًا.

أغمضت عينيها، وتذكّرت الحلم... أنس، وجه أمها، صوت التلاوة، وسجدة ذلك الضياع.

نبض قلبها تسارع، والدموع بدأت تنزل دون إذن.

همست:

"أنا... كنت إنسانة سيئة".

ردّ إياد، بنبرة مطمئنة:

"كلّنا نُخطئ، لكن أجمل ما في الحياة... أنها تعطينا فرصة نبدأ من جديد".

رفعت رأسها بصعوبة، نظرت إليه، وقالت بصوت مبحوح:

"أستطيع... أبدأ؟ حتى بعد كل شي فعلته؟"

ابتسم، وقال:

"إذا كنتِ عايشة... فربّك لا يزال فاتح لكي باب العودة".

ثم مدّ يده، ووضع بين يديها المصحف الصغير الذي كان على طاولتها منذ اليوم الأول.

قال لها:

"هذا ما كنت أقرأه بجانبك... كل يوم. افتحيه، تقربي، واحكي له كل الذي بقلبك... هو يسمع".

سكتت.

شعرت بشيء حارق داخل صدرها، لكنّه لم يكن ألمًا... بل **نورًا صغيرًا بدأ يشعّ لأول مرة منذ زمن طويل.**

الفصل الخامس

حين انكشفت الجروح

مرت ثلاثة أيام على استيقاظها من الغيبوبة، لكن جسدها لم يزل مرهقًا، وكدماتها تحكي عنف الحادث...

ذراعها مكسور، خدّها يحمل أثر الزجاج، والضمادات تُغطي ركبتها وكتفها الأيسر.

كانت مستلقية بهدوء، تحدّق في السقف، شاردة، كأنها ترى شيئًا لا يراه أحد.

دخل الطبيب إياد كعادته، يحمل ملفها، ابتسامته خفيفة، خطواته هادئة.

قال وهو يضع الكرسي بجوارها:

"كيف حالكِ اليوم؟"

لم تجب.

رفّت بعينيها فقط، ثم أدارت وجهها للنافذة.

جلس بقربها، وأخذ نبرة حنونة:

"هل أزعجك حضوري؟

أعدكِ أني سأغادر لو رغبتِ، لكن... كنت أريد فقط أن أسألك شيئًا بسيطًا".

نظرت إليه، بعين نصف مطفأة، وهمست:

"ماذا؟"

أخذ نفسًا عميقًا وسأل بهدوء:

"خلال كل هذه الأيام... لم يأتِ أحد لزيارتك.

هل لديكِ أحد؟ أهل؟ أقارب؟"

وفجأة... كأن سؤاله كان الطعنة الأخيرة.

اهتزّت شفتاها، وامتلأت عيناها بدموعٍ ثقيلة، ثم أجهشت بالبكاء.

حاولت أن تتكلم، لكن شهقتها خنقتها.

اقترب الطبيب قليلاً، ناولها منديلًا، وانتظر... دون استعجال.

قالت أخيرًا، بصوت مكسور:

"ما عندي احد... ما حدا سأل عني"...

ثم تابعت، وقد سالت الكلمات من فمها كأنها سيل:

"ماتوا... ماتوا كلهم...

بابا، ماما، وأخويا أنس... كلهم ذهبوا في حادث...

وأنا التي بقيت... وأنا التي دفنتهم بعيني".

غطّت وجهها بكفيها، وانكمشت كأنها تحاول أن تختفي.

صمت إياد، وعيناه لمعتا تأثرًا، لكنه لم يقاطعها.

أكملت، بصوت مشبع بالخذلان:

"كنت نتمنى على الأقل احد يضمني، احد يضمن بالي...

عائلة بابا قالوا لا يستطيعون ان يزيدوا مسؤولية فوقهم، وعائلة ماما... قالوا خصّامهم مع بابا لم يتركهم يفكروا فيّ حتى".

تنهّدت، وقالت بحرقة:

"كل واحد سلّمني للثاني... وما في احد سلّمني للحب.

حتى خالتي، قاطنة معي بجسمها، لكن روحها بعيدة... كل شيء يخصني كان وحيد. حتى أنا... كنت وحيدة".

نظر إليها إياد طويلاً، ثم قال بصوت منخفض:

"الناس خذلوكِ... لكن الله ما خذلك أبدًا.

يمكن كل شيء صار... كان حتى ترجعي له، ترجعي لنفسك، ترجعي للحياة التي تستحقينها ".

رفعت عينيها نحوه، وفيهما بريق صغير، ممزوج بدموع كثيرة.

"لكن... لا اعرف من أنا بعد كل شي صار.

بعد ما شربت، وسهرت، و... خسرت نفسي".

اقترب أكثر، وقال:

"أنتِ ليس ذنبك. أنتِ روح كانت تائهة... وضاعت الطريق.

بس الطريق ما زالامامكي ، والله ما يغلق الباب في وجه الذي يطرقه".

ثم نهض وقال بهدوء:

"اتركينا نبدأ رحلة علاج الجسد أول، وبعدها... نبدأ رحلة شفاء القلب".

وهو يغادر الغرفة، سمعها تهمس:

"ممكن... تبدأ تقرأ لي من القرآن ثانية ؟

الصوت... كان يريحني وأنا نائمة".

توقف، وابتسم ابتسامة خفية:

"أكيد... من الغد، نبدأ معا".

ثم خرج، وترك خلفه فتاة صغيرة... تشق طريقها ببطء من العتمة نحو النور.

الفصل السادس

الزائر في الظلام

كانت الساعة تشير إلى **الثالثة صباحًا**، الصمت يخيّم على المستشفى، لا صوت إلا همسات الأجهزة، ونور خافت يتسلل من الممر الطويل.

في الداخل، كانت "هي" نائمة، وجهها يميل للصفاء بعد أيام من البكاء.

المصحف بجانبها، يدها مغطاة بالجبيرة، لكن قلبها بدأ يستشعر شيئًا يشبه الأمان... أو شيء من الراحة.

ثم...

انفتح باب الغرفة ببطء.

دون استئذان، دون طرق، دخل رجلٌ ضخم، ملامحه قاسية، عيناه مليئتان بالغضب.

يرتدي معطفًا جلديًا، وصوته مخنوق بالغليان:

"أخيرًا وجدتكي... افتحي عيونكي يا كلبة".

اقترب منها بخطوات ثقيلة، وهو يخرج هاتفه ويشغّل ضوء الفلاش نحو وجهها.

"فكرتي تنامي مرتاحة بعد ما أخذتي مالي؟ نسيتِ ليلة السبت؟ نسيتِ إنك وعدتيني ترجعيلي المال؟"

فتحت عينيها ببطء، وحين رأته...

تجمّد الدم في عروقها.

"سامي؟ ماذا... ماالذي اتى بك؟"

رفع صوته أكثر:

"ما الذي اتى بي ؟! ثلاث ملايين نسيتِهم؟! كنتِ تسكرين باموالي و تضحكين اين هم اين اموالي"!

مدّ يده إليها، أمسَك كتفها بقوة، وهزّها بعنف وهي تصرخ من الألم:

"آه!! لاااا!! ساعدوني"!!

في نفس اللحظة، كان الطبيب إياد يراجع ملفًا في الغرفة المجاورة، فسمع الصرخة الحادة.

فتح الباب فورًا، ووجد المشهد.

فتاة ضعيفة تصرخ.

رجل مخيف يرفع يده ليضربها.

دموع، رعب، وصراخ.

صرخ إياد بقوة لم يُظهرها من قبل:

"اِبعد يدك عنها حالًا"!!

التفت سامي، وضحك بسخرية:

"ما دخلك إنت؟ هذه بنت شوارع، تعرفني جيدا"!

اقترب إياد بسرعة، ووقف بينه وبين السرير:

"هي الآن تحت رعايتي... ولو لم تخرج حالًا، سأطلب الأمن فورًا".

صرخ سامي:

"ارجعي لي اموالي و انا خرج"!

رد إياد بنبرة صارمة:

"اموالك سترجع لك في المحكمة، بعد ما نبلغ الشرطة ونسجلك قضية تهديد وابتزاز قاصر"!

سكت سامي، ارتبك للحظة، ثم قال وهو يتراجع:

"لن اتنازل... سوف ترينني ثانية"!

ثم خرج وهو يركل الكرسي بجانبه بعنف.

بقيت الغرفة ترتجف من الصدمة.

كانت تبكي، تحاول تغطية وجهها، ترتجف كطفلة في البرد.

اقترب إياد بهدوء، ورفع الغطاء على جسدها المرتبك، ثم جلس قربها وقال:

"لا تخافي... أنا هنا.

لن أسمح لاحدان يأذيك بعد اليوم".

همست وهي تنتحب:

"أنا... أنا التي اخطات، إياد.

هو ليس كذاب... أنا فعلًا كنت أسهر معه، و... اخدت منه مال".

سكت، ثم أمسك بيدها المضمّدة وقال:

"انتهى الماضي...نحن نبدأ من جديد.

لكن لازم تواجهين الحقيقة، لا تهربين منها".

نظرت إليه، وكأنها ترى في وجهه أخيرًا **رجلًا لم يطمع بجسدها، بل اهتم بروحها**.

في تلك الليلة، لم تنم.

بقيت تفكر في كل شيء... في ظلامها، في إياد، في الله، في الحياة التي كادت تنتهي قبل أن تبدأ.

وفي داخلها، نبتت **بذرة خفيفة من الرجاء**.

كان الليل ساكنًا بعد الحادثة... وهي لا تزال تنتفض في سريرها، عيناها حمراوان من البكاء.

اقترب إياد منها بهدوء وسألها:

"اسمك... لم اعرفه بعد. ما احد ذكره في الملف".

سكتت قليلًا، ثم قالت بصوتٍ متقطّع:

"نور... اسمي نور".

ردّ إياد، وهو يبتسم للمرة الأولى من قلبه:

"اسمك... يشبهك".

رمشت بدهشة:

"يشبهني؟"

هزّ رأسه وقال:

"كنتِ غارقة في الظلام... لكن كل يوم، ارى قليلا من النور يرجع لعيونك".

سكتت للحظة، ثم همست لنفسها:

"يارب... اجعل اسمي يليق بي".

الفصل السابع

العدالة اول الطريق

مع أول خيوط الفجر، استيقظت نور بعد ليلة طويلة.

لم تكن قد نامت فعليًا...

عيناها ظلّتا مفتوحتين، تحدّقان في السقف، تفكّران في كل شيء: صراخ سامي، يد إياد، صوت الآية، ألم كتفها، ودموعها التي لم تجف.

تمنت أن يكون ما حدث بالأمس مجرد كابوس.

لكن كدمات أصابع سامي على ذراعها أكّدت لها أن **الواقع أحيانًا أقسى من كل الأحلام السيئة.**

في الطابق السفلي، كان الطبيب إياد يخطو بثبات نحو إدارة المستشفى.

ملف صغير في يده، يتضمّن تقرير الحادثة، وصورة لكدمات المريضة.

دخل إلى مكتب المدير، وبلغة حازمة قال:

"أريد تقديم بلاغ رسمي.

أحدهم اقتحم غرفة مريضة قاصر ليلاً، اعتدى عليها لفظيًا وجسديًا، ولولا تدخّلي، لا أدري إلى أين كانت الأمور ستصل".

تفاجأ المدير، لكنه أدرك من نظرة إياد أن الأمر جدي.

ردّ بهدوء:

"هل المريضة مستعدة للشهادة؟"

أجابه إياد:

"هي خائفة، محطّمة... لكني سأكون معها. ولن أسمح لأحد أن يُعيدها للماضي من جديد".

ثم رفع عينيه وقال بصدق:

"هذه الفتاة كانت على حافة الموت.

والآن، لديها فرصة لتعيش... ليس تعيش فقط، تعيش بكرامة".

وافق المدير، وتم الاتصال بالشرطة.

في الغرفة 207، دخلت ممرضة بلطافة وقالت:

"نور، حبيبتي، إياد راح يتأخر قليلا، عنده اجتماع مهم".

أومأت نور برأسها بصمت.

ثم همست:

"هو راح يشتكي على سامي... صحيح؟"

ابتسمت الممرضة:

"إياد وعدك... ودائما يوفي بوعده".

نظرت نور إلى النافذة، لأول مرة لم تكن تهرب منها، بل كانت تنظر إلى الضوء الذي تسلل منها.

همست:

"شكراً يا رب... لأنه يوجد ناس مثله، لا يزال يخافون علينا ".

في الخارج، كانت الشرطة تبدأ إجراءات التحقيق.

وتم تسجيل شكوى رسمية باسم المستشفى وبتوقيع الطبيب المسؤول: إياد هلال.

قبل أن يغادر، نظر الضابط إليه وسأله:

"هل لديها أهل نتواصل معهم؟"

ردّ إياد بنبرة حزينة:

"لا... لكن إن كنتم تبحثون عن أحد يهتم لأمرها...

فأنا موجود".

وبينما الشرطة تبحث عن سامي...

كانت **نور تبدأ بخطوة صغيرة نحو الشعور بالأمان الحقيقي** لأول مرة في حياتها.

الفصل الثامن

حين لبست النور

مرت أسابيع قليلة على حادثة سامي.

نور الآن تمشي على قدميها، ببطء، لكن بقلبٍ أكثر قوة من قبل.

عيناها لم تعودا فارغتين...

فيهما بريق يشبه الفجر بعد ليلةٍ سوداء.

في صباح أحد الأيام، دخل الطبيب إياد غرفتها ومعه وشاح أبيض ناعم.

وضعه على السرير وقال بلطف:

"يوجد مسجد قريب من هنا... نعمل فيه دروس قرآن ودين للشباب، أغلبهم كانوا تايهين، مثل ما كنتِ".

نظرت إليه، دون أن تتكلم.

أكمل بابتسامته الحنونة:

"أنا إمام المسجد بعد صلاة المغرب. نعلّم هناك، نسمع، نجاوب، نرشد.

احببت ان أقول لكي... الباب مفتوح لكي ان احببتي تاتي".

سكت لحظة، ثم أضاف:

"والوشاح... فقط هدية. ما فيه إجبار".

في تلك الليلة... لم تنم.

وضعت الوشاح على رأسها وهي تنظر للمرآة.

كانت مختلفة.

مريضة الجسد، لكن سليمة الروح لأول مرة.

صلّت.

ولأول مرة في حياتها، شعرت أنها تتحدث إلى أحد... لا تهرب منه، بل تشتاق إليه.

في الغد، رافقها إياد للمسجد.

كان قلبها يدقّ، خطواتها مترددة، لكنها مشت.

دخلت من باب النساء، وجلست في الصف الأخير، تختبئ خلف سترة خفيفة، وخجل كثير.

ثم سمعت صوته...

"نورُ الله لا يُهدى للقلوب الغافلة...

بل للقلوب التي، رغم ذنوبها، تشتاق إليه".

سمعته يتحدث، ويبتسم، ويشرح.

ورأت فتيات محجبات، عيونهن دافئة، صدورهن مطمئنة، وكأنهن وجدْن شيئًا كانت هي تبحث عنه طوال عمرها.

بعد الدرس، اقتربت منها إحدى الفتيات، وابتسمت:

"أول مرة تجين؟"

هزّت نور رأسها وقالت بخجل:

"إي... أول مرة.

بس... ما راح تكون الأخيرة إن شاء الله".

في طريق العودة، نظرت لإياد وقالت:

"أريد أحفظ القرآن... كلّه.

وألبس حجابي من قلبي، مش مجاملة".

ردّ إياد بابتسامة فخور:

"وأنا أعدك... ما راح أتركك لحظة في هالطريق".

ومن ذلك اليوم،

صارت نور **تستيقظ على صوت الفجر**،

تحمل مصحفها معها أينما ذهبت،

وتبتسم كلما وضعت حجابها أمام المرآة.

الفصل التاسع

عودة النور الى البيت

في صباحٍ مشرقٍ، بعد أيام من التماثل للشفاء، دخل إياد إلى غرفة نور بابتسامته الهادئة المعتادة.

ألقى التحية، ثم قال بصوته الرزين:

"صباح الخير، يا أختي نور".

ابتسمت له بخجل وهي ترتدي حجابها الكريمي البسيط، ووشاحًا فوق كتفيها.

ردّت:

"صباح الخير، أستاذ إياد".

جلس على الكرسي المقابل، وفتح الملف الطبي بين يديه، ثم قال:

"اليوم، حملت لكِ خبرًا...

حان الوقت لتعودي إلى منزلك".

رمشت نور بدهشة.

"أنا... جاهزة؟"

هزّ رأسه مؤكدًا:

"نعم. جسدك شُفي تقريبًا، ولم يبقَ إلا القليل من الراحة.

فقط عليكِ ألا تُجهدي نفسك، وتُكملي طريقك كما وعدتِ ربك".

سكت لحظة، ثم أضاف بنبرة لطيفة:

"المستشفى سيبقى مفتوحًا لكِ... وأنا كذلك".

بعد ساعة، خرجت نور من المستشفى، ترتدي **عباءة رمادية واسعة، حجابًا ساترًا، وخطواتها تمشي بثقة وحياء.**

في الطريق، كانت تُمسك بالمصحف الصغير الذي لم يفارقها منذ الغيبوبة، وفي عينيها **نورٌ حقيقي... ليس اسمًا، بل أثرًا.**

وصلت أمام باب منزل خالتها، قلبها يدق...

هل ستقبلها؟ هل ستسخر من شكلها الجديد؟ هل ستلومها؟ تخاف؟ تُنكر؟ تبكي؟

ضغطت زر الجرس.

فتحت الخالة الباب.

في اللحظة الأولى ...**تجمّدت.**

شفتاها فُتحتا بدهشة، وعيناها امتلأتا بالدموع.

"نور؟!!

نور... بنتي؟"!

كانت ملامحها لا تُصدّق ما تراه:

وجه ناعم دون مساحيق، عينان خاشعتان، حجاب يغطي شعرًا طالما كان رمز تمرّدها.

عانقتها نور بهدوء:

"أنا رجعت...

رجعت غير.

يمكن ما كنت ملاك، بس... ربي سترني، واعطاني فرصة جديدة".

بكت خالتها بحرارة، وقالت:

"والله ما كنت أتصور أشوفك هكذا...

كأنك بنتي اللي كنت أتمنى تربيتها من الأول".

ضحكت نور بخفة، ودمعة انزلقت من خدها:

"الحمد لله اللي هداني... كنت ضايعة، والحين صرت أعرف وين أمشي".

في المساء، ومع اقتراب أذان المغرب، خرجت نور من غرفتها وهي ترتدي **جلبابًا بسيطًا بلون السماء، حجابًا أبيض، ومصحفها بيدها.**

قالت لخالتها بلطف:

"عندي موعد اليوم... في المسجد.

محاضرة الأستاذ إياد. أول دروسي في طريق النور".

نظرت إليها خالتها بدهشة، ثم بسعادة:

"وش كبرك يا بنت... وش نورك هذا؟!

لو أمك شافتك كذا... كانت سجدت لله من فرحتها".

ابتسمت نور، وخرجت وهي تمشي نحو المسجد،

تركت خلفها **البيت القديم الذي شهد الألم،**

ودخلت إلى بيت الله... الذي سيشهد ميلادها من جديد.

الفصل العاشر

حين فضحني الماضي... وسترني الله

كانت جالسة في المسجد، أرض مفروشة بالسجّاد الأخضر، ومكان يعبق بعطر الطمأنينة.

نور، بحجابها الأبيض ووجهها الخاشع، تجلس في الزاوية الهادئة، **غارقة في صوت إياد** وهو يتكلم عن الرحمة، عن المغفرة، عن كيف يُبدل الله السيئات حسنات.

قال إياد بصوته الخاشع:

"كلنا لنا ماضٍ...

لكن الله لا ينظر إلى الوراء... ينظر إلى القلوب التي تريد العودة إليه".

نور أغلقت عينيها... وابتسمت.

أحسّت أن هذا الكلام خُلق لها فقط، أنها ليست ضائعة بعد الآن، بل أصبحت من أهل النور حقًا.

حتى قال إياد أخيرًا:

"وإلى هنا... انتهى درسنا لهذا اليوم، جزاكم الله خيرًا جميعًا".

بدأ الناس ينهضون، بعض الفتيات اقتربن ليسلّمن على الأستاذ، والبعض يتبادلن السلام.

فجأة، شعرت نور بشيء اصطدم بها.

فتاة شابة، في مثل سنها، بملابس أنيقة وعطرٍ نفاذ، قالت بسخرية مصطنعة:

"آه، آسفة... لم أركِ".

ابتسمت نور بخجل وقالت:

"لا بأس، حصل خير".

رفعت الفتاة نظرها إليها جيدًا، فتغيّرت ملامحها فجأة...

وسألتها بصوتٍ عالٍ فيه سخرية:

"أوه... نور؟

نور اللي كانت في الملهى؟ شو عم تعملي هون؟ مش المفروض تكوني ترقصي؟"!

تجمّد الجو.

العيون التفتت، وبعض الهمسات بدأت تدور...

بعض الفتيات تبادلن النظرات، وأخريات بدأن يهمسن بفضول.

ثم تابعت الفتاة، بنبرة أكثر لؤمًا:

"ولاّ يمكن... جيتي تصطادين الأستاذ إياد؟

لا تتعبي حالك، هو مش راح يطالع في وحدة بماضيكِ".

نور خفضت عينيها، وجهها احمرّ من الإهانة، ويدها بدأت ترتجف.

كادت تنهض وتخرج... لكن...

دخل إياد إلى القاعة.

كان لا يزال في الخارج يتحدث مع أحد الإخوة، وحين سمع الجلبة، دخل فورًا.

رأى الموقف... رأى نور تنزل دمعة من خدها، ورأى نظرات الناس، ورأى الفتاة التي ما زالت واقفة كأنها انتصرت.

سار بخطى ثابتة، وقف أمام الجميع، ثم نظر إلى نور وقال بنبرة مطمئنة:

"نور... لا تبكي".

رفعت رأسها إليه، لم تصدّق أنه لاحظها... لاحظ دمعتها.

ثم التفت إياد إلى الحضور، وصوته أصبح أكثر حزمًا:

"من هذه اللحظة، أود أن أقول شيئًا واضحًا للجميع".

سكت لثانية، ثم نظر نحو الفتاة التي سخرت وقال بصرامة:

"نور ...**خطيبتي**".

سقطت الكلمات كالصاعقة.

"وأنا... أعرف ماضيها جيدًا.

وأقول لكم: نعم، كانت تائهة... لكنها وجدت الطريق.

وقلبي ليس أعمى عن ماضيها، بل مُبصر لحاضرها وإيمانها،

وأنا أفتخر بها... لأن الله سترها، وأنا اخترت أن أكون من عباده الذين يسترون لا من الذين يفضحون".

سكت الجميع.

صمت مفاجئ سيطر على القاعة.

نور، من شدة الدهشة، وضعت يدها على فمها.

"خ... خطيبتي؟"!

إياد نظر إليها وابتسم بلطف:

"ما كنت حابب أقولها بهالشكل...

بس الله أراد أن يكون إعلان سترك... أمام من حاول فضحك".

خرجت الفتاة مُحرجة، أما نور فبقيت جالسة...

قلبها لا يعرف أهو يبكي أم يضحك.

لأول مرة، شعرت أن هناك من لا يهرب من ماضيها... بل **يحتضنه معها ويغفر.**

الفصل الحادي عشر

ولادة جديدة... في بيت الله

بعد يومين من تلك الحادثة في المسجد،

وقف إياد أمام بيت نور...

لم يكن وحده هذه المرة، بل ترافقه والدته، امرأة بسيطة، بعينين فيهما حكمة وأصالة.

طرقا الباب.

فتحت الخالة، تفاجأت أولًا، ثم قالت بابتسامة خجولة:

"تفضلوا، البيت بيتكم".

في تلك اللحظة، خرجت نور من غرفتها،

ترتدي عباءة بيضاء، شعرها مخفي تحت حجاب ناعم،

ووجهها منير، فيه ارتباك طفولي، وحياء حقيقي.

جلست والدته بجانبها، ثم تقدّم إياد بهدوء، وقال:

"جئت أطلب يد نور... على سنة الله ورسوله".

الخالة نظرت إلى نور، وكأنها تسألها بعينيها:

"هل أنتِ متأكدة؟"

نور أومأت بابتسامة مطمئنة، ثم همست:

"هو أول رجل شاف روحي... مش بس شكلي".

وافقت الخالة، وتم تحديد عقد القران بعد أسبوعين،

وكان ذلك **يوم ميلاد نور الـ17**.

في ذلك اليوم، لم تكن ترتدي فستانًا أبيض فخمًا،

ولا صخبًا، ولا موسيقى...

بل جلست بعباءة حريرية بسيطة، في غرفة صغيرة مليئة بالورد والقرآن.

قال المأذون:

"قُبل العقد؟"

قال إياد بثبات:

"قبلتُ، والله خير الشاهدين".

وبكت نور.

لم تبكِ لأن حياتها تغيّرت فقط، بل لأنها أخيرًا

"تحوّلت من فتاة ضائعة... إلى زوجة في طريق الله".

بعد شهر من الاستعدادات الهادئة، أقاموا **عشاءً بسيطًا** بين العائلتين، بلا موسيقى، بلا صخب... فقط دعوات، دموع فرح، وقلوب صافية.

في ليلة السفر، حمل إياد جوازات السفر وقال:

"جاهزة؟"

نظرت إليه بدهشة:

"سفر؟ لوين؟"

أجاب بلطف:

"أردت أن يكون شهر عسلنا مختلفًا...

راح نبدأه من أطهر مكان على وجه الأرض".

فهمت، ثم وضعت يدها على فمها من التأثر:

"مكة؟! رايحين عمرة؟"!

هزّ رأسه مبتسمًا:

"أول خطوة نخطوها كزوجين... لازم تكون نحو الله".

وفي صحن الكعبة،

كانت نور واقفة بجانبه، ترتجف من الخشوع.

دعَت الله أن لا تعود أبدًا كما كانت.

دعَت أن يظل إياد بجانبها...

ودعت لأهلها الذين رحلوا، أن يغفر لهم... كما غفر لها.

وبكت.

وهكذا...

انتهى فصل من حياة نور،

وبدأ فصل جديد بعنوان:

"الهدية التي منحها لي الله... بعد كل خطاياي".

خاتمة الرواية

كنت تائهة.....فهداني

إلى كل من ظنّ أن الله لن يقبله...

إلى من حمل في قلبه ذنبًا لا يغفره الناس...

إلى من جلس في الليالي يبكي ماضيه... ويحسب أن الأمل مات.

اقرأوا قصتي...

أنا "نور."

كنت في الظلام... فأنارني الله.

كنت أرقص في الليل وأنا أضحك... لكن قلبي يبكي.

كنت أبحث عن الحب في أعين الناس... ونسيت أن حب الله هو أول حب لا يخذلك.

غبت... وتعبت... ووقعت...

لكن الله لم يبتعد عني لحظة.

كان ينتظرني أعود.

واليوم، أنا لا أدّعي الكمال...

لكني أدّعي أني **وجدت الطريق**.

"إن الحسنات يُذهبن السيئات... ذلك ذكرى للذاكرين".

[ـــهود:114]

وكلما وقعت... قُلت لنفسي:

"قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله"...

[ـــالزمر:53]

فلا تقنطي...

ارجعي...

وافتحي قلبكِ للنور...

فالله لا يخيب قلبًا عاد إليه🤍